الفصل التاسع
نهاية دولة الخزر

بعد قيامنا في الفصل السالف بالتعرف إلى مكامن الضعف المفترضة في جسم دولة الخزر، لنحاول الآن تتبع مسار الأحداث التي قادت إلى تفكك أوصالها ومن ثم اختفائها نهائياً، ونستخلص من روايات الاصطخري (320/ 932م) والمسعودي (332/ 943) ومن المراسلات الخزرية، أن دولة الخزر كانت مزدهرة في منتصف القرن العاشر، وإذا كان من الممكن الاعتماد على وثيقة كمبردج، فقد نال الخزر في هذه الآونة نجاحاً عسكرياً ملموساً لاسيما ضد البيزنطيين[1]، ومع ذلك كان هنالك خطر واضح قد نما مع ازدياد قوة الروس وتماسكهم، لكن منذ متى بدأت غارات الروس انحداراً مع الفولغا؟ هذا ما لا يمكن قوله بشكل واضح[2].

ويبدو أن الروس كانوا في مراحل ماضية واقعين تحت النفوذ الخزري، على الأقل من الجانب الثقافي[3]، فلقد ورد ذكر الخاقان الروسي في المصادر العربية[4]، وفي الرواية

---

(1) انظر ما سلف الفصل السادس.

(2) جرت مناقشة نص البلعمي (تحقيق، دورن: 500) الذي ذكر فيه أن الروس كانوا يشكلون خطراً على أراضي القوقاز منذ سنة 22هـ/ 642 - 643، في الفصل الثالث، وهنالك إشارات مشابهة تحدثت عن الظهور الروسي المبكر في كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي (ت: 207هـ/ 823م) والذي يمكن أن يكون قد صنف أيام الصليبيين، فقد ذكر هذا الكتاب أن صقالبة قد قاتلوا إلى جانب الروم في معركة اليرموك (15/ 636) وكانوا بقيادة الملك الروسي قناطير (ط. 1335هـ: 1/ 97) وهذا لاشك محض خيال، ومن أجل الاسم انظر قنطال لدى نظامي (فصل 1 حاشية 61).

(3) جرى بحث هذه القضية بالروسية من وجهة نظر أرتمونون التي تفضل الحديث عن تأثير خزري على الروس.

(4) ابن رسته: 145. (انظر مرقوارت: 200).

اللاتينية عن سفارة بيزنطية توجهت إلى الإمبراطور في الغرب في سنة 839[1] (تشاكانوس Chacanus)، ومن الممكن أن هذا اللقب قد استعير من الخزر، كما يعتقد مرقوارت[2]، زد على هذا أن ملك الروس قد كان له أيام ابن فضلان (922) خليفة مثلما جرت عليه العادة لدى الخزر، وكان هذا الخليفة يقود الجيوش، ويثير الحرب ضد الأعداء، ويقدم الملك إلى شعبه[3]، ولا يشك زكي وليدي أن هذه الوظيفة عند الروس قد استعيرت من النظام الخزري[4]، ويبدو أن ابن فضلان قد سمع عن «الفيوفودز» Voevods الروسي[5].

وعلى جميع الأحوال لقد كان الروس مع القرن التاسع أقوياء بما فيه الكفاية لاحتلال جزء من الأراضي الخزرية في الغرب، بما في ذلك مدينة كييف[6] (878؟)، وقد بدأنا نسمع عن حملات روسية محددة هبوطاً مع الفولغا، ووصل الروس في أيام السيد حسن بن زيد حاكم طبرستان فيما بين (251هـ/ 864م) و (270هـ/ 854م) إلى بحر قزوين، وقاموا بهجوم غير ناجح على آبسكون على الشاطئ الشرقي[7]، وعاثوا فساداً في هذه المرة في الرساتيق المجاورة ونهبوها وقتلوا بعض المسلمين وحملوا بعضهم الآخر أسرى[8].

ولربما يمكن لوجود هذه السفن في مياه بحر قزوين أن يوضح الفوائد التي حصل عليها الخزر من إبقاء طريق مواصلات الفولغا مفتوحاً، فلقد رأينا أن السفن الروسية كانت أثناء مرورها في الأراضي الخزرية عرضة لدفع العشور عن حمولتها من البضائع، فهذا ما ذكره الاصطخري، الذي كتب في حوالي سنة 840م، لكن هذه المواصلات

---

(1) حوليات بيرتنياني: 839 (نقلاً عن مرقوارت: 202).

(2) يرى زكي وليدي (Die schwerter der Germanen; 32) أن لقب خاقان جاء إلى الروس من خلال علاقتهم المبكرة مع الهون؟.

(3) ابن فضلان: فصل 93.

(4) ابن فضلان: 253.

(5) انظر. ن. ك. شادويك «بداية التاريخ الروسي»: 115.

(6) انظر فرنادسكي، «روسيا القديمة» 368.

(7) ابن أسفنديار: 199.

(8) المصدر نفسه.

اضطربت بعدما فقد الخزر المناطق الغربية لصالح الروس[1]، ولربما سيمكننا أن نفترض بشكل صحيح أن السفن التي أغارت على آبسكون قد وصلت إلى بحر قزوين بمباركة حكومة الخزر.

وكانت هذه الأحوال آخذة بالتغيير إثر الحملة الثانية - بين الحملات التي وصلتنا أخبارها - على آبسكون، فقد طلب من السلطات الخزرية السماح لأسطول حربي روسي باستخدام طريق الفولغا المائي[2]، وقد كشف الروس عن نيتهم بالإغارة على شواطئ بحر قزوين، وعرضوا على الخزر أن يدفعوا إليهم نصف الغنائم التي أملوا بالحصول عليها، وذلك مقابل السماح لهم بالمرور، وتمت الموافقة على مطلبهم.

لقد علق جيبون مرة في كتابه «في تاريخ العالم» بقوله: يمكنني أن أتصور وجود أسطولين فقط في بحر قزوين[3]، وحين قال هذا كان يفكر بالأسطول المقدوني بقيادة الأدميرال بتروكلس Patrocles، الذي قيل بأنه هبط من نهر جيحون من آسيا الوسطى[4]، وبالأسطول والجيش الذي قاده بطرس الكبير من جوار موسكو إلى شواطئ بحر قزوين، ومع ذلك كانت الحملة الروسية[5] التي نتحدث الآن عنها مؤلفة من أسطول حربي على مستوى هائل، فقد حوى خمسمائة سفينة في كل منها مائة رجل، ومن الواضح أن قوة كهذه كانت بالنسبة لتلك الأيام قوة عملاقة، وإننا لا نعرف السبب الذي جعل الخزر يسمحون للروس بالدخول إلى قلب بلادهم، في وقت كانوا فيه أقوياء بما فيه الكفاية لمنعهم، وذلك حسبما يوحي سياق الأحداث، ولعل السبب هو أن السلطات الخزرية التي لم تكن تحب المسلمين، كانت راضية بالحصول على مكاسب ضخمة بدون عمل على حسابهم، ذلك أن

---

(1) الاصطخري، ابن حوقل، انظر الفصل الخامس والثامن.

(2) المسعودي، انظر ما سلف.

(3) الانحدار والسقوط: 46، الحاشية 2.

(4) هنالك شك الآن فيما إذا كانت هذه الحملة قد تمت.

(5) لعل الحملة قد وقعت سنة 301/ 913 إثر اعتلاء ايغور الروسي (مينورسكي، الموسوعة الإسلامية، مادة روس) ويقول المسعودي إن ذلك كان بعد سنة 300 بينما يعطي ابن اسفنديار، المصدر نفسه، تاريخ 298هـ.

الحملة الروسية كانت موجهة ضد الأراضي الإسلامية القائمة على شواطئ بحر قزوين، ومهما يكن الحال ينبغي النظر إلى قرار قادة الخزر على أنه كان سابقة خطيرة.

وأغار الروس في هذه المناسبة (حوالي سنة 913م) على عدد من المراكز على طول شواطئ بحر قزوين، لا بل توغلوا حتى أردبيل في أذربيجان على مسافة ثلاثة أيام داخل البر، وجرت رواية ما حدث في سياق الفصل السابع اعتماداً على المسعودي، ولم يصل إلى سمع المسعودي منذ ذلك الحين تكرار لهذه المحاولة من جانب الروس، لكن الروس كانوا من جديد في بحر قزوين في السنة التي كان يكتب بها تاريخه (332هـ/ 943م) إنما بنتائج أقل مأساوية - كما يبدو - بالنسبة إليهم وإلى الآخرين، وكانت حملة سنة 943م في الحقيقة على مستوى كبير، فلقد استولى الروس على برذعة، واحتفظوا بها لمدة سنة[1]، وقد ظل موضع مخيمهم خارج المدينة معروفاً حتى بعد جيل من الزمن[2] ومتذكراً، وقد عانوا في هذه المناسبة ليس على أيدي الخزر - الذين يمكن تخمين دورهم في هذه الأعمال بشكل غير مؤكد - بل من الوباء الذي فتك بهم، وأضعف قواهم، وجعلهم عاجزين عن مقاومة الأمير المسافري مرزبان بن محمد حاكم أذربيجان، الذي تمكن من طرد الباقيين وملاحقتهم حتى سفنهم، وقد رأى العلماء المسلمون فيما نزل بهم، عقوبة سماوية على ما ألحقوه بالمسلمين من أذى[3].

ويستخلص من رد يوسف أن مرحلة أخرى في العلاقات بين الروس والخزر قد قامت عندما جاء وقت توقفت - كما يبدو - عنده السلطات في أتل - خزران عن إعطاء الإذن بمرور مثل هذه الأساطيل الحربية الأجنبية عبر الفولغا، وكما سلف بنا القول تحدث يوسف في النص المختصر من الوثيقة قائلاً: «إنني أعيش على مصب نهر أتل، ولا أسمح

---

(1) ابن الأثير: 8/ 134 - 135. ابن مسكويه: 2/ 62 - 67. حيث يقدم رواية ثمينة مأخوذة عن شاهد عيان لزحف الروس عندما وصلوا إلى برذعة.

(2) حدود العالم: 29، 144. ويذكر ابن الفقيه أن عدداً كبيراً من القرى، معظمها خرائب في أحواز برذعة قد احتلها الروس (مخطوطة مشهد: 189هـ).

(3) ياقوت، معجم البلدان، مادة روس.

للروس الذين يأتون بسفنهم بالمرور إلى بلاد العرب، ومثل ذلك إنني لا أسمح لأي من أعدائهم الذين يأتون براً بالمرور إلى بلادهم، إني أعالج حرباً صعبة معهم، إنني لو أذنت لهم فلسوف يجتاحون جميع ديار العرب وصولاً حتى بغداد»، وجاء هذا الحديث بصورة أوسع في النص الطويل، حيث قال: «أعلم وأفهم أنني أعيش عند مصب النهر، وأقوم بعون القدير بحراسة مصب النهر ولا أسمح للروس الذين يأتون بالسفن بالذهاب بحراً ضد العرب، ولا لأي عدو بالقدوم براً والوصول إلى (باب الأبواب)[1]، إنني أقاتلهم، ولو سمحت لهم لساعة واحدة لاستطاعوا اجتياح جميع بلاد العرب وصولاً حتى بغداد وبلاد الـ . . .»، وهكذا علينا أن نفهم أنه مع سنة 960م عدّ الخاقان أنه من الضروري إبقاء الروس بعيداً ومنعهم من الهبوط من الفولغا إلى بحر قزوين.

ومن الواضح أن هذه الحملات قد زودت الروس بحكايات لتقص، وهزائم ليشأروا لها وينتقموا، وأكثر أهمية من هذا هو أنهم لابد قد كونوا فكرة جيدة حول طبيعة الدفاعات الخزرية ومدى قوتها، ومع هذا يلاحظ أن حركة المواصلات والسفر المعتادة قد استمرت هبوطاً مع الفولغا، ولعل الخزر قد قرروا من جانبهم إغلاق النهر في وجه الأسطول الحربي الروسي بعد حملة 332هـ/ 943م، ولعله إذا كان لتغيير السياسة المشار إليه من نتيجة، فإنها تبدت في قيام آخر الحملات الروسية وأعظمها في بلاد الخزر، وهي حملة قامت بعد قرابة العشرين سنة.

وتبعاً للتاريخ الروسي هزم سفياتوسلاف Sviatoslav حاكم الروس الكييفيين الخزر بقيادة خانهم (خاقان) واستولى على مدينتهم المعروفة باسم بيلافيزها Bielaviezha، ثم أخضع الياس Yas، والكاسوغ Kasogs ومن ثم عاد إلى كييف[2]، وجرت العادة أن نقول: إن المقصود بـ «بيلافيزها» (البرج الأبيض)[3] هو ساركيل[4]،

---

(1) حرفيا «إلى الباب» (شعار)، وجرى في مكان آخر من الرد استخدام عبارة شعار باب الأبواب (الفصل السادس).

(2) المؤرخ: 32.

(3) أو «الخيمة البيضاء» انظر مرقوارت: 3.

(4) المعادل الإغريقي لساركيل هو «أسبرون هوسبشن» وهو له معنى مماثل، انظر الفصل السابع.

ويعترض مرقوارت على هذا بقوله إن عاصمة الخزر قد عرفت أحياناً في المصادر العربية المبكرة باسم «البيضاء» وأنها هي المعنية هنا[1]، وإذا صح وكان الهجوم ضد العاصمة الخزرية فمن الطبيعي أن نفكر أنه تم بوساطة الأسطول وليس بوساطة قوات برية، ولم يرد في «التاريخ الروسي» أية حديث عن سفن جرى استخدامها من قبل سفياتو سلاف في سنة 965م، ومع هذا هناك شهادات مستقلة تشير إلى أن خزران - أتل قد سقطت بالفعل في حوالي هذا التاريخ في أيدي الروس[2]، وعلينا بالطبع أن نتوقع وجود إشارة ما لقضية هامة كهذه في «التاريخ الروسي»، ومن الصعب أن نفهم لماذا نال الاستيلاء على قلعة الدون - إذا صح وكان هنالك استيلاء على ساركيل - الذكر وأهمل ذكر الأحداث الأخرى، وبناء عليه نرى أن رأي مرقوارت يحمل حظاً كبيراً من الصحة.

أما بالنسبة لتدمير خزران - أتل فليس هنالك أدنى شك حوله، فقد ذكر ابن حوقل وهو يعقب على رواية الاصطخري، ذكر في أكثر من مكان أنها دمرت من قبل الروس، وأعطى تاريخاً لذلك سنة 358هـ/ 968 - 969م، وقد قال ابن حوقل أثناء حديثه عن بلدة بلغار الفولغا: «وكانت مركزاً معروفاً لتجارات هذه البلاد (أي البلدان الشمالية)، ثم نهبها الروس في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودمروا تماماً: خزران، وسمندر، وأتل»[3]، وقال ثانية وهو يتحدث عن تجارة الفراء: «ولم يزل كذلك إلى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فإن الروس خرَّبوا بلغار وخزران»[4]، وأشار ابن حوقل في نص ثالث إلى مصدر معلوماته عن الروس بقوله: «وكانت بها (سمندر) بساتين كثيرة يقال إنها كانت تشتمل على نحو أربعين ألف كرم[5]، وسألت عنها بجرجان سنة ثمان وخمسين، رجلاً قريب عهد بها، فقال: وليس هناك كرم أو بستان ما له على المساكين صدقة إن كان بقي هناك ورقة على ساق، وقد أتى عليها الروسية، ولم يبق بالبلد عنبة ولا زبيبة، وكان يسكن هذا البلد

---

(1) مرقوارت: 1 - 3. انظر الفصل الثالث من أجل البيضاء.

(2) انظر ما يلي.

(3) تحقيق كريمر: 15.

(4) تحقيق كريمر: 392.

(5) رقم الاصطخري هو / 000. 4 انظر الفصل الخامس.

المسلمون وطبقات أهل الملك والوثنيون فجلوا، ولفضل أرضهم وحسن ريعهم، فلن تمضي ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان»[1]، وأوحى هذا النص إلى بارثولد أن تاريخ 358هـ/ 968م لربما يشير إلى وقت زيارة ابن حوقل إلى جرجان، وليس إلى حملة[2] سفياتو سلاف، ومن المؤكد أننا إذا افترضنا أن ابن حوقل قد أعطى انطباعاً أن نهب وتدمير بلاد الخزر قد حدث في أوائل تلك السنة، فإننا بذلك نمتلك شرحاً للخلاف حول التأريخ.

ولقد حاول زكي وليدي أن يجد في هذا النص ما يعطي الانطباع أن الحملة الروسية قد جرت في سنة 965، حسبما جاء في التاريخ الروسي[3]، لكن هذا اقتضى منه إعادة صياغة كلام ابن حوقل وورطه في تغيير كلمات مصدر معلوماته حيث غدت كما يلي: «ولفضل أرضهم وحسن ريعهم (فلم) تمض ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان»، وهذا العمل مرفوض تماماً[4]، وواضح التصنيع، وعرض مرقوارت أن «الياس» و «الكاسوغ» الذين أتى على ذكرهما التاريخ الروسي، وبيّن أن سفياتو سلاف قد هزمهما بعد الاستيلاء على «بيلافيزها»، ما هما إلا «اللان» (أس As) القاطنين في القوقاز و «الكشك» الذين عاشوا على مقربة من القوقاز، فلعلهما كانا من رعايا الخزر[5]، وبناء على هذا ينبغي أن نعد أن التاريخ الروسي لم يكتف بإعطاء التاريخ الصحيح لحملة سفياتو سلاف الناجحة في سنة 965، بل أشار إلى شيء يشبه الوصف الكامل لحملته[6]، وبالمناسبة يمكن أن نشير إلى

---

(1) تحقيق كريمر: 393.

(2) الموسوعة الإسلامية، مادة بلغار.

(3) ابن فضلان: 319، الحاشية.

(4) «فلن تمضي ثلاث سنين» هذا ما جاء بالنص.

(5) مرقوارت: 2/ 79. واستخرج «كشك» و «كاسكيه» (تنبيه: 184): كسخيه (قسطنطين بورفي، الإدارة الإمبراطورية: 42) رد يوسف النص القصير «باصا» وقد صحح في النص الطويل «كاصا» وتبعاً لحدود العالم: 48 كانت كاسك في بلاد اللان وجاء فيه كساك أيضاً. انظر الفصل الرابع، الحاشية 104، انظر أيضاً الفصل الخامس. وانظر أيضاً مينورسكي «عبر القوقاز» المجلة الآسيوية: 217 (1930) 73 – 90.

(6) إن افتراض غراتز (Geschichte, v, 307) أن سفياتو سلاف قد أغار على بلاد الخزر في سنة 965 (ساركيل) وثانية في سنة 968 (أتل وسمندر) لا يعتمد على مصدر.

أن النظرية القديمة التي تربط بين الخزر والكوزاك Cossacks»[1] هي قطعاً مسوغة إذا أمكن أن نؤكد أن الكوزاك هم الكاسوغ.

وفيما يتعلق بإغارة سفياتو سلاف التي ورد ذكرها في التاريخ الروسي، لقد ارتأى مرقوارت فيما بعد أنها امتدت إلى ساركيل فقط، ثم قال بعد ذلك إنَّ نهب وتدمير بلاد الخزر حسبما تحدث ابن حوقل، قد وقع بالفعل سنة 968م، لكن الذين كانوا مسؤولين عنه لم يكونوا روس كييف رعايا سفياتو سلاف، ولهذا لم يرد ذكره في التاريخ الروسي[2]، وبالنسبة لهذه الفرضية بات من غير المستبعد أن تكون ساركيل قد انتزعت من الخزر سنة 965، وأن بلاد الخزر قد تعرضت للنهب والدمار في سنة 968م على أيدي أعداء آخرين، لكن دون أن يأتي التاريخ الروسي على ذكر أي شيء حول هذا الحدث الجلل، وعلى العموم: إن هذا الحل الأخير يدين نفسه بنفسه، فما جاء في التأريخ الروسي حول سنة 965م كما أبدت تحليلات مرقوارت، يظهر أن مجال اهتماماته كان أوسع من حصن الدون والمناطق المجاورة له، ومن الواضح أنه كان يدون أخبار انتصارات روسية حصلت في الأراضي الخزرية الشمالية من القوقاز، وهو مطابق تماماً لما نفهمه مما جاء عند ابن حوقل، ولم يكن هنالك أكثر من حملة عامة مدمرة في بلاد الخزر في تلك السنوات، والتاريخ الذي حدد لها وهو 965م هو تاريخ صحيح، على الرغم من ابن حوقل، فهذا ما نجده في نص مصدر عربي آخر.

فقد روى ابن مسكويه (ت: 421هـ/ 1030م) في تاريخه أنه قامت في سنة 354هـ/ 965م طائفة من الترك بالنزول على بلاد الخزر، ولهذا طلب الخزر مساعدة أهالي خوارزم، وقد رفض الخوارزميون في البداية على أساس أنهم كانوا يهوداً، وقد أخبروهم أنهم إذا أرادوا الحصول على المساعدة عليهم اعتناق الإسلام، ووافق الخزر على ذلك واعتنقوا جميعاً الإسلام فيما عدا ملكهم[3]، وقد أثار تفسير عبارة «أهالي خوارزم»

---

(1) مثالاً على ذلك فر. بودنستديت «شعوب القوقاز» فرانكفورت 1848: 338، وحديثاً أو. برتساك «در ـ إسلام» ب. 3 (1952): 113

(2) مرقوارت: 474.

(3) تحقيق أمدروز: وجاء الخبر تبعاً لبارثولد (الموسوعة الإسلامية، مادة خزر) من عند ثابت بن سنان، الذي توفي سنة 365/ 975 (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: 1/ 324).

خلافات في الآراء، فقد افترض مرقوارت[1] أن المعنى هنا «الأرسية» من سكان بلاد الخزر الذين كانوا بالأصل من خوارزم[2]، في حين رأى زكي وليدي أن المقصود بذلك أهل خوارزم أنفسهم[3]، ومهما يكن من أمر فهناك إجماع على أن المعني «بالترك» في هذه الرواية هم الروس، وهكذا نجد أن كاتباً حذراً مثل بارثولد قد أعلن أن الحديث أراد هنا حملة سفياتو سلاف[4]، ونقل ابن الأثير (ت: 630/ 1234م) خبر مسكويه هذا، وأضاف إليه: إن ملك الخزر تبنى الإسلام فيما بعد[5]، وبناء عليه يمكننا باطمئنان أن نعدّ هذا الخبر تأكيداً مستقلاً بالنسبة لافتراض عام 965 السنة التي أغار بها الروس على بلاد الخزر[6].

وينبغي معاملة رواية مسكويه بشيء من الحذر، لكن بارثولد غير محق في رفضه لها، وعدّها رواية غير تاريخية، فلقد سلف ورأينا من قبل حاكماً خزرياً قد قام تحت تأثير

---

(1) مرقوارت: 4.

(2) تماماً، تبعاً للمسعودي «من أحواز خوارزم» انظر الفصل السابع.

(3) ابن فضلان: 320.

(4) الموسوعة الإسلامية، مادة خزر.

(5) 8/ 196. وظهر الخبر أيضاً (بتاريخ 254هـ بشكل خاطئ) لدى الدمشقي (توفي 727/ 1327) تحقيق مهرن: 263.

(6) ومع هذا هنالك مخرج آخر قدمه فازلييف (القوط: 120) يمكنه أن ينقذ تاريخ 968 الذي قدمه ابن حوقل بشأن دمار خزران، أتل من قبل سفياتو سلاف أثناء إغارته على بيلا فيزها (ساركيل) وأسس هذا المخرج على قطعة توبراغ القوطية (الفصل الرابع، الحاشية 144) التي تقدم شواهد فلكية، وتبعاً لما رآه فازلييف حاول الخزر سنة 962 استعادة حكمهم السالف في القرم (الذي انتهى بفعل ازدياد قوة البشناق والدعم الذي تلقوه من البيزنطيين في بداية القرن العاشر، فازلييف المصدر نفسه: 116) حيث استخدموا عدداً كبيراً من الخيول والرجالة وقد دمروا عشرة مدن وأكثر من خمسمائة قرية في القرم (المصدر نفسه: 129) وتوجه في شتاء 962 قوط التوبراخ إلى كييف للحصول على المساعدة من سفياتو سلاف وروسه، ووجده في كانون الثاني 963 في رحلة العودة (المصدر نفسه: 130) (إن هذه الزيارة المدعاة إلى كييف هي نوع من أنواع المغامرات ويبدو أنها مخترعة) وبالمحصلة زحف سفياتو سلاف وروسه ضد الخزر في الموسم التالي (963) واستولوا على مدينتهم بيلار فيزها، وكما يقول المؤرخ وقبل سنة 965 زحف ضد الياس والكاسوغ، وتمكن الروس في أواخر الستينات من القرن العاشر من سحق دولة الخزر (المصدر نفسه: 134). وإذا صح خبر الهجوم الخزري على القرم في أنه وقع سنة 962 فإنه من الصعب عدّه الحادثة نفسها التي وصفت في وثيقة كمبردج، التي إذا صحت لابد أنها كتبت قبل ذلك.

ضغط الظروف بتبني الإسلام بشكل مؤقت[1]، وليس من غير الممكن أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث على الأقل عندما كانت المساعدة الإسلامية ضرورية لصد الغزاة الروس، وهنالك إشارات مستمرة إلى الخزر على أنهم مسلمون بعد هذا التاريخ، فعندما تحدث المقدسي عن بلدة «خزر»[2] (لاشك أنه أراد خزران) قال إن السكان قد هجروها في مرحلة من المراحل وذهبوا إلى الساحل، لكنهم عادوا الآن (أي حوالي سنة 375هـ/ 985، عندما كان المقدسي يكتب) وهم ليسوا يهوداً لكنهم مسلمون، وينبغي أن نلاحظ أن المقدسي قد سمع عن الحملة الروسية، لكن من الواضح أنه لم يربط إخلاء خزران بما حدث فيما بعد، وعلى الرغم من أنه قد قيل إنه كان «واحداً من أعظم الجغرافيين في جميع العصور»[3] نجد من الصعب تأكيد صحة ما ذكره عن بلاد الخزر، حيث يبدو أن مصادره لم تكن طيبة[4]، ومع هذا فإن ما ذكره المقدسي عن عملية الإخلاء هذه والعودة علينا أن نقبله، لأنه وثّق وأكد بشكل أكثر تفصيلاً من قبل ابن حوقل، الذي من المرجح أنه لم يكن مصدره، وقد أخبرنا ابن حوقل أولاً[5] أنه عندما هرب الخزر من الروس ذهب بعضهم إلى جزيرة سياه كوه على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين، وانسحب آخرون جنوباً إلى إحدى الجزر أمام ساحل «بلاد النفاطه»[6] وهو المكان الذي كان الروس قد وقفوا فيه بنجاح سنة 301هـ/ 913م ضد شروان شاه تلك الأيام[7]، ويبدو أن زعماء الخزر الأحياء قد قاموا بعد هجوم الروس لسنة 965 بالاتصال بشروان شاه ذلك الحين، واستطاعوا الحصول على

(1) انظر ما سلف، الفصل الرابع.

(2) المقدسي: 361.

(3) بارثولد، تركستان (سلسلة ذكرى جب) 11.

(4) لقد تحدث عن البلغار «حيث الليل قصير» (انظر الاصطخري، النص المنقول أعلاه، الفصل الخامس) وبما أنهم كانوا أقرب إلى بحر قزوين أكثر منهم إلى عاصمة الخزر، فقد حاول زكي وليدي (ابن فضلان: 206) رفض ذلك لدى إشارته إلى مستوطنة جديدة للبلغار في حوض الفولغا الأدنى، بعد تدمير مدينتهم التي كانت موجودة في الحوض الأعلى، لكن المقدسي لا يمتلك فكرة واضحة عن خزران أتل (انظر مرقوارت: 3) ولعله مضطرب حول موقع البلغار.

(5) تحقيق دي غويه: 282.

(6) سماها ابن حوقل «جزيرة باب الأبواب» انظر مرقوارت 2، الحاشية 1.

(7) انظر ما سلف، الفصل السابع.

مساعدته، ذلك أننا نجد ابن حوقل يستطرد في خبره فيقول[1]: «ولم يبق في وقتنا هذا [حوالي سنة 367هـ/ 977م] للبلغار، ولا لبرطاس، ولا للخزر أهل الروس بقية إلاَّ شعثة ناقصة قد جاسوها، وذلك بقصدهم الجميع وبلوغهم في سائر مجاوريهم فوق آمالهم، وقد بلغني أن كثيراً منهم رجعوا إلى أتل، وخزران بإعزاز محمد بن أحمد الأزدي صاحب شروان شاه لهم[2]، وتأييدهم برجاله وقومه وهم [أي الخزر راجون مؤملون أن يعاهدوهم] - الروس؟ - ويكونوا تحت طاعتهم بشيء من البر يقيمونه لهم» وهنا ربما تكون مساعدة شروان شاه قدمت مشروطة بقبول الإسلام، وليس ذلك من المستحيلات، لاسيما أن أوضاع الخزر كانت سيئة إلى حد خطير جداً كما هو مفترض.

زد على ما سلف روى المقدسي أنه قد سمع أن المأمون قد أغار على بلاد الخزر من كركانج (الجرجانية)، وبعدما هزمهم دعاهم إلى الإسلام[3]، وهذه إشارة أخرى إلى الخزر كمسلمين، والأمر مرتبط مع خوارزم على أساس أنها المصدر صاحب المكانة في الموضوع، وربما كان ذلك في الوقت المذكور من قبل ذلك أن بارثولد الذي رفض هذا الخبر ولم يعدّه تاريخياً[4]، أنكر أن يكون المشار إليه الخليفة المأمون العباسي، بل المأمون بن محمد الذي كان في البداية حاكماً لكركانج (الجرجانية)، ثم لجميع مناطق خوارزم بعد سنة[5] 995م، هذا ويلاحظ أن المقدسي قد أشار أكثر من مرة إلى ما يفيد بوجود روابط بين خوارزم وتاريخ الخزر في هذه الآونة، فقد قال: إن مدن الخزر قد جرى احتلالها أكثر من مرة من قبل حكام كركانج[6].

---

(1) تحقيق كريمر: 3097.

(2) هذا واضح ومفهوم في النصوص الأخرى (دي غويه: 286) يعني أن الملاحظات حول شروان شاه مقحمة بالأصل.

(3) تحقيق دي غويه: 361.

(4) الموسوعة الإسلامية، مادة خزر.

(5) لا توجد إشارة في مكان آخر حول أية إنجازات من جانب المأمون الخليفة العباسي، ووجد مرقوارت صعوبات جمة لدى محاولته إيجاد مكان لها في خلافة المأمون (3 - 4) هذا ومن المدهش أن نجد أن المقدسي كان يشير إلى المأمون بن محمد في سنة 375/ 985 باسم المأمون بكل بساطة، وكأنما لم يكن هنالك أدنى احتمال للمزج بينه وبين آخر، وذلك قبل عشر سنوات من حصوله على لقب خوارزم شاه (انظر مينورسكي، حدود العالم: 174).

(6) دي غويه: 371، الحاشية.

مع أن شروان شاه محمد بن أحمد الأزدي هو شخصية غير معروفة[1]، فليس لدينا من سبب للشك في ظروف رواية ابن حوقل، وأن الخزر قد عادوا إلى ديارهم بفضل مساعدة جاءتهم من شروان، هذا وإننا سنرى شروان شاه والخزر على اتصال مرة أخرى، وأن الوصف الخاطئ لملك الخزر من قبل ابن اسفنديار باسم «شروان شاه» لم يكن من باب المباهاة[2]، كما أن الربط بخوارزم الذي جاء بعد هذا وقدمه المقدسي يمكن التمسك به، مع أننا لا نمتلك في الوقت الحاضر معلومات حول الظروف، فعلاقات الخزر مع هاتين الدولتين المسلمتين بعد الحملة الروسية ينبغي أن تبقى في الوقت نفسه مسألة اجتهادات وفرضيات، ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنه لا يمكننا الحديث بثقة بعد 965م عن دولة يهودية مستقلة قائمة على الفولغا، هذا وإن صورة بلاد الخزر كما عرضتها صفحات ابن رسته وابن فضلان، والمسعودي، والاصطخري، وابن حوقل تتباين بشكل كبير، لكن الخطوط الأساسية تبقى هي ذاتها، والمقصود بذلك: الملك المزدوج، وانعزالية الرأس الاسمي للدولة، واعتناق اليهودية، فهذه أمور قد أكدتها مصادر أخرى، ولا نمتلك - فيما بعد - مثل هذه الأوصاف لدى الكتاب المسلمين، كما أنه ليس هنالك أدلة مؤكدة في مصادر أخرى تبين أن السمات البنيوية لبلاد الخزر قد احتفظ بها، ذلك أن مملكة الخزر بشكلها المعهود لم تعد باقية إثر الحملة الروسية، هذا ويبدو بالمقابل أنه من المستبعد القول: إن اعتناق الإسلام قد أصبح عاماً بين الخزر الذين عادوا إلى بلادهم، كما تريد مصادرنا أن تقول، مع أن مجالس إدارتهم لاشك قد شهدت ممارسة مؤثرات جديدة، ولم تكن هذه المؤثرات روسية، ذلك أن سفياتو سلاف قد غادر بلاد الخزر بعد انتصاره هناك[3] - كما يقول بارثولد[4] - بغية الانضمام إلى القوات البيزنطية ضد بلغار الدانوب[5]، وقد عدّ بارثولد

---

(1) كذلك بارثولد، الموسوعة الإسلامية، مادة خوارزم شاه، انظر مينورسكي حدود العالم: 406. هذا وإن ذكره في ابن حوقل (تحقيق دي غويه: 250، 254) تحت عنوان «صاحب شروان شاه»، قد لا يعني لقبه بل اسم مكان هو «شروان شاه». انظر الفصل السابع.

(2) المصدر نفسه.

(3) قال ابن حوقل (تحقيق دي غويه: 14) إن الروس قد غادروا.

(4) في كتابه بالروسية اكتشاف آس (1925) (ترجمة فرنسية من قبل ب. نكتين، باريس 1947: 195).

(5) تبعاً لجيبون (فصل 55) كان برفقة سفياتو سلاف في حملته بعض الخزر.

هذه الحادثة على أنها ذات أهمية عظيمة بالنسبة للتاريخ الروسي، فلو أن الروس قد بقيوا على الفولغا لكان من المؤكد - كما يرى - خضوعهم للثقافة الإسلامية[1].

ويبدو من خلال ما جاء عند ابن حوقل، وعند المقدسي، أنه جرت محاولة لإعادة بناء العاصمة الخزرية، لكن هذا أخفق في أخذ صفة النجاح الدائم، وذلك في ضوء إشارة ورد فيها: أن أتل كانت خراباً[2] أيام البيروني (ت: 440هـ/ 1048م)، ويفترض أن بلدة سقسين قد احتلت مكانها، وهنالك احتمالات في أن سقسين هي أتل - خزران نفسها، أو على الأقل لم تقع بعيدة عنها، وأن الاسم يمكن أن يكون بعثاً لإسم سارغشن القديم[3]، هذا ولسنا على يقين أن سقسين كانت موجودة في أيام البيروني، فهو لم يأت على ذكرها[4]، بيد أنه من المؤكد أنها كانت مزدهرة في القرن الثاني عشر، عندما تحدث أبو حامد الأندلسي (حوالي 1150) عنها لدى الحديث عن خوارزم، وأن البلغار قائمون فوقها على مسافة أربعين يوماً، كما أن القزويني قد ذكرها[5]، أما أحمد الطوسي فقد تحدث عن سقسين على أنها بلدة كبيرة على الفولغا، وليس هناك بلدة أعظم منها في تركستان[6]، وقد

---

(1) نقل أعلاه.

(2) انظر زكي وليد، ابن فضلان: 206.

(3) كذلك مينورسكي، حدود: 453، نقلاً عن وستبيرغ وبوليان (التحول: 2) وقد حاول هنالك أن يرى أن سقسين كانت قائمة في أحواز ستالينغراد الحالية (تساريتسين) وافترض أنها كانت مدينة هامة قبل سنة 965 (المصدر نفسه: 1) ومع أنه كان من الممكن وجود مركز حصين للخزر يشرف على نقطة لقاء الفولغا بالدون (خمليج، تبعاً لفرنادسكي، روسيا القديمة: 215) لا يوجد شيء مؤكد في مصادرنا، وقام رأي بولياك في أن سقسين قد وجدت قبل 965 على أساس أنه ورد ذكرها في جوسبون Josippon، وفي كتاب جشار Jashar، وذلك اعتماداً على تحديدات هاركفي لصيغ وأشكال الأسماء في هذين الكتابين، بما في ذلك صيغة سقسين، لكن هذا كله لا يعدو الافتراضات ولا يمكن التأكد أنها تعود إلى تاريخ متأخر (انظر الفصل السابع).

(4) زكي وليدي، ابن فضلان: 206.

(5) تحقيق فيراند: 87، 117، انظر الحاشية 73. وهنالك إشارة مشابهة في القزويني تحقيق ووستفيلد: 2/ 402 حيث ذكر أن سقسين «بلدة كبيرة وكثيرة السكان بين بلدان الخزر ويحتلها أربعون قبيلة من قبائل الغُزّ».

(6) زكي وليدي، ابن فضلان: 205. عاش أحمد الطوسي في القرن الثاني عشر.

ورد ذكرها مراراً في تاريخ وأخبار الحملات المغولية[1]، وأخيراً اختفت من الوجود[2]، ربما بفعل عوامل طبيعية، ثم قام (باتو) حفيد جنكيز خان ببناء سراي - ربما سراي باتو - في موقعها[3]، ومن المحتمل أن تكون سقسين قد بنيت وسميت بالأصل من قبل الخزر، ولا يمكننا أن نغفل أهمية القول: إن أياً من النصوص التي جاء ذكرها بها (فيما عدا القزويني، الذي هو مصدر من الدرجة الثانية) قد قالت إنهم تملكوها أو كان سكانها من اليهود[4].

ولقد قيل مراراً: أن الحملة الروسية قد أدت إلى تدمير الدولة الخزرية وعلى هذا الأساس نجد أبا الفداء (1273 - 1331) يتحدث عن «الخزر وبلاد الخزر» وعن دمارهما من قبل الروس[5]، مشيراً بذلك - كما يبدو - إلى واقعة سنة 965م المرعبة، وذكر في العصور الحديثة كيونك[6] وهوورث[7] ومرقوارت[8]، وهم قليل بين عدد كبير من

---

(1) ذكر الجويني (1/ 31) أن إقطاع جوجي الابن الأكبر لجنكيز خان امتد من قيليغ (قرب بحيرة بلخش، انظر مينورسكي، حدود: 277) وخوارزم إلى غاية سقسين وبلغار، ويقول رشيد الدين (تحقيق بلوخت: 18) عندما خلف أوكتاي جنكيز خان بعث ثلاثين ألفاً من الفرسان ضد خوارزم شاه، ثم أرسل كوكتاي، وسوبتاي بها در مع قوة مماثلة ضد القبجاق، وسقسين وبلغار (انظر الجويني: 1/ 150) وثانية بعد وفاة أوكتاي رفض باتوخان بن جوجي القدوم إلى المجمع المغولي من إقطاعه في سقسين وبلغار (الجويني: 1/ 205) ويمكن أن نقارن أيضاً ما ذكره الجويني: 1/ 222 قوله عندما جلس القان (أوكتاي) على العرش أخضع جميع البلاد الواقعة على مقربة منه، وهي بقايا القبجاق واللان والآس والروس والبلغار أيضاً وآخرون، ويستدل من هذا أن بلغار الفولغا موجودين حتى أيام المغول، لكن من الصعب الحديث عن بقاء الخزر.

(2) كذلك بكوي (بروكلمان: 2/ 213).

(3) وكذلك وصاف، نقلاً عن زكي وليدي، ابن فضلان: 204، الحاشية 1. كما يبدو نقلاً عن الجويني (1/ 222).

(4) وتبعاً لأبي حامد الأندلسي (فيرانا 116) كان في سقسين في أيامه علماء مسلمون ومساجد وأسواق وقصور وأسرى من سقسين في أيدي الأتراك (قبجاق أوغز، انظر القزويني الحاشية 68) وينبغي أن يكون التاريخ حوالي 515/ 1150.

(5) تحقيق رينو ودي سلان: 203.

(6) البكري، تحقيق كونك وروسن، سانت، بطرسبرغ 1878: 73 - 74 (اقتباس وسبيرغ، إبراهيم بن يعقوب: 79) وتبنى كونك فيما بعد الرأي القائل إن الخزر استمروا بالوجود.

(7) هل كان الخزر ايغور، أو ترك؟ مؤتمر المستشرقين الثالث (1879): 5/ 27.

(8) مرقوارت: 5/ 27.

الباحثين[1]، الشيء نفسه، ولا يتعارض الخبر الذي نقلناه الآن، وهو الذي يظهر أن بقايا الخزر والأحياء منهم قد عادوا إلى بلادهم، مع الرأي المحافظ القائل إن دولة الخزر لم تعد موجودة كدولة مستقلة منذ القرن العاشر، ويلاحظ بالمقابل أن بعض الكتاب قد شرع يقول ـ على الأقل منذ أيام رموسين Rusmussen[2] ـ: إن دولة الخزر قد اختفت أخيراً، وزالت من الوجود في القرن الثالث عشر فقط، وذلك نتيجة للحملات المغولية، وناقش بولياك[3] هذا الرأي في أيامنا بشكل حماسي شديد.

وقبل تفحص المزيد من الروايات، من الممكن إبداء الرأي التالي: لاشك أن المصدر الحاسم بالنسبة لما قيل بأن الروس قد دمروا دولة الخزر في القرن العاشر، هو من غير شك ابن حوقل الذي سلف لنا أن نقلنا كلماته حول الموضوع، هذا ويلاحظ أن ابن حوقل يتحدث بشكل حاسم عن دمار بلغار وسط الفولغا، وهنا من المؤكد أن البلغار كانوا يشكلون مجتمعاً مزدهراً في أيام الحملات المغولية في القرن الثالث عشر، فهل بعد هذا كان تدمير دولة الخزر تدميراً مؤقتاً أيضاً؟[4].

فقد ذكر التاريخ الروسي أن بعض الخزر مثلوا في سنة 986م أمام فلادمير، ربما في كييف، ودعوه إلى اعتناق عقيدتهم، وتحدث هذا التاريخ عما حدث بالتفصيل ووصف حضور جماعات من اللاتين والإغريق والمسلمين، وكذلك من اليهود وتناقشهم أمام الحاكم الروسي بشأن عقائدهم[5]، وقد عدّت هذه الرواية من قبل عدد من النقاد رواية[6] مدسوسة، ومع ذلك إن وجود يهود خزر في كييف في تلك الآونة هو في حد ذاته ليس من الأمور المستبعدة، وتتيح لنا أوضاع فلادمير القول: إن شيئاً من البحث الديني ربما قام قبل

---

(1) أوضح الأستاذ مينورسكي إلى أن غياب ذكر الخزر فيما يتعلق بهجرة القبائل من بلاد المغول في القرن الحادي عشر، يمكن أن يعني أن دولتهم قد توقفت عن الوجود كدولة لها أهميتها، منذ النصف الثاني من القرن العاشر (مروزي: 103).

(2) المجلة الآسيوية: 1/ 5 (1824) 306.

(3) التحول ومملكة الخزر.

(4) انظر بولياك: التحول: فصل 1.

(5) المؤرخ: فصل 40.

(6) انظر تعقيب ليغر Lager، تاريخ نحلة نسطور: 389.

تعميده، وحاجج غراتز Gratz لصالح هذه الرواية وقال إنها صحيحة، وقد جعل المبشرين اليهود يأتون إلى روسيا من القرم، حيث ـ تبعاً له ـ قام الناجون من الهجوم الروسي على بلاد الخزر في عام 965 بإعادة تنظيم أنفسهم تحت قيادة خاقان لهم متخذين بوسبورس (كيرتش) عاصمة لهم[1].

وبالنسبة لهذه الأقوال اعتمد غراتز على وثيقة نقل عنها، وقد ذكرت هذه الوثيقة أنه مع عام 4746 للخليقة ـ 986 للميلاد جاء [رسل أمير الروس و«المشك» M-sh-k] من مدينة كييف إلى «مولانا داود أمير الخزر» الذي كان كما يبدو يسكن في تمتارخا (تمان) للتباحث حول قضايا دينية، وتبعاً للتاريخ الروسي؛ مثل في هذه السنة نفسها اليهود الخزر أمام فلادمير، هذا وإن التوافق بين هذه التواريخ مدهش، ومن الصعب تجنب الشك بهذه الوثيقة التي مرت بين يدي فيركوفتش، وتحمل ـ كما يقال ـ نغمة عصرية مع سمات الاختراع[2]، وبالنسبة للخاقان داود ـ كما يدعوه غراتز ـ ووجود دولة خزرية مستقلة في القرم ليس هنالك ما يؤكده في مكان آخر، وإذا ما برهنت شكوكنا على عدم صحته، فإن الرجل الذي أشير إليه باسم «مولانا داود لربما كان مقدم الخزر [ولم يكن أبداً خاقانهم][3] في تمتارخا، التي لربما خرجت عن أيدي الخزر في سنة 988م وذلك عندما ـ تبعاً للتاريخ الروسي ـ تمركز فيها مستسلاف[4] واستقر.

ولم تنقطع بعد هذه الإشارة إلى الخزر وإلى مملكة الخزر، فتبعاً لسيدرينوس cedrenu مصدر القرن الحادي عشر، أرسل الامبراطور البيزنطي سنة 1016 حملة ضد بلاد الخزر تمكنت بالتعاون مع الروس من إخضاع البلاد بكل سرعة، وإلحاق الهزيمة بحاكمها جرجس تزول Tzul في الجولة الأولى[5]، هذا وليس من المدهش أن نقرأ عن

---

(1) Geschichte, v, 341 - 342.

(2) انظر الموسوعة اليهودية، مادة يعقوب بن روبن (ابراهام بن سمحا الكرتشي المؤلف المعزو إليه هو شخصية مخترعة من قبل فيركوفتش).

(3) انظر الحاشية 88 التالية.

(4) المؤرخ: الفصل 43، وانظر أيضاً الفصل 52.

(5) طبعة بون: 2/ 464 (غروسيه، امبراطورية السهوب: 237) حيث تحدث عن جرجيوس تزولوس بمثابة خان للتمان.

خزري يحمل اسم جرجس المسيحي، ففي وقت مبكر (في القرن الثامن) كان هناك طرخان اسمه جورج[1]، وقد ورد ذكر انتشار المسيحية بين الخزر في أكثر من مصدر، أضف إلى هذا احتمال أن اسم «تزول» مرتبط باسم «تزور» أو «صول» وهو اسم أطلق أحياناً على ممر دربند.

والسؤال: إلى أين توجهت هذه الحملات؟ هو سؤال يحوي بعض الأهمية، فتبعاً لغراتز عملت هذه الحملات ضد دولة الخزر في القرن ـ التي برهن على وجودها من خلال الوثيقة التي سلف ذكرها ـ ودمرت البقية المرئية من حكم الخاقان[2]، وتبعاً لآخرين توجهت الحملة البيزنطية ـ الروسية المشتركة في عام 1016م ضد سواحل بحر آزوف[3]، ولم يشك كوتسشيرا Kutschera أن المقصود كان منطقة القوقاز، ولعل مرد هذا إلى ما ذكره سيدرينوس من أنه بعد هزيمة «جرجس تزول» أرغم حاكم «ميديا العليا على تقديم الطاعة» وافترض كوتسشيرا أن هذا الحاكم واسمه في نصنا سنحريب[4]، كان خزرياً يحكم في منطقة من مناطق القوقاز، لكن في جميع الأحوال من الصعب أن نتصور يهودياً يحمل هذا الاسم[5]، وعلى العموم، لعله من المسوَّغ لنا أن نعتقد أن الحملة البيزنطية ـ الروسية ضد بلاد الخزر كان هدفها الرئيسي القوقاز، لكن علينا أن نعلم أن الوضع في تمتارخا ـ شروعاً من عام 988م عندما استقر فيها مستسلاف ـ ظل غامضاً[6].

---

(1) ترجمة ستيفن أسقف سوداك، نقلاً عن بولياك، التحول: فصل 2.

(2) Geschichte, v, 342.

(3) انظر بولياك، التحول: الفصل الأول. خزاريا: 210.

(4) انظر سنحريب بن سواده الصناري (الفصل السابع.) الذي كان أميراً مسيحياً يحكم في القوقاز في القرن العاشر (و. مينورسكي دورية معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية: 1953، القوقاز 4، 15/ 3/ 519، 522، 526).

(5) بالنسبة للموقف التلمودي تجاه سنحريب، انظر سنهرين: 94 ط.

(6) انظر فازلييف، القوط: 194.

وورد ذكر الخزر في أحداث سنة 1023م في التاريخ الروسي، حيث زحف كما قيل مستسلاف ضد أخيه جاروسلاف Jaroslav، فقد صاحبه في زحفه بعض الخزر[1]، والكاسوغ[2]، ومن الممكن أن المعني هنا كان خزر تمتارخا.

ولدينا أيضاً إشارة عند ابن الأثير في عنوان من عناوين أحداث سنة 421هـ/1030 حيث جاء «ذكر غزو فضلون الكردي الخزر»[3]، وقال بارثولد: إن فضلون هذا هو الفضل ابن محمد من الأسرة الشدادية التي حكمت في كنجة[4]، واسمها الآن «إليزافتبول Elizavetpol في ما وراء القوقاز، وتبعاً لابن الأثير بينما كان فضلون عائداً إلى بلاده بعد حملته على الخزر انقضّ هؤلاء عليه على حين غرة، وقتلوا أكثر من عشرة آلاف من قواته، وأضاف ابن الأثير: إنهم استردوا جميع الغنائم التي كان قد أخذها منهم «وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا»، ويرى بولياك أن العبارة الأخيرة لها أهمية خاصة[5]، لأنها تدل على أن الخزر لم يكونوا من المؤمنين، تماماً كما كانوا في الأيام الخالية، وقبل مرقوارت هذا التأويل كما هو، وعدّ هذه الحادثة هي آخر مرة يظهر فيها الخزر في التاريخ[6]، وشكك بارثولد بهذا التأويل، وافترض أن الخزر لم يكونوا هم المقصودين، بل أهالي جورجيا أو الأبخار، هذا وإن حقيقة اشتراك أعداد كبيرة في العملية يمكن أن تستبعد وجود الخزر بعد تشتتهم في عام 965م.

وتبعاً للتاريخ الروسي كان أولغ Oleg حفيد جاروسلاف في تمتارخا في سنة 1078م، وقيل إنه أسر في العام التالي من قبل الخزر، وحمل بحراً إلى القسطنطينية، ويظهر هذا بيزنطة وكأنها تنشط بين الفريقين من روس، وخزر، المتنازعين على السلطة في تمتارخا، وتثيرهما ضد بعضهما بعضاً وتستغل ذلك لصالحها، وفي حوالي الوقت نفسه قتل رومان أخو أولغ من قبل البولوفتسي Polovtsi، ثم عاد أولغ من بيزنطة عام 1083م

---

(1) انظر الحاشية 4، ص323.

(2) المؤرخ، فصل 52.

(3) 9/ 142.

(4) الموسوعة الإسلامية، مادة خزر

(5) التحول: 1 (انظر خزاريا: 218).

(6) نقلاً عن بارثولد، المصدر نفسه.

فانتقم لأخيه من «الخزر لأنهم تآمروا على قتله وثاروا عليه»[1]. ومن الممكن بالنسبة لنا أن نفهم أن الخزر هنا هم الذين قاموا بتوجيه أعمال البولوفتسي، وبالتالي كأنهم كانوا يتحكمون بعدد من الجماعات الأجنبية كما فعلوا في الأيام السالفة، وعلى جميع الأحوال لم يمكن التعرف إلى الفئتين المذكورتين هنا، وفي عام 1106م قيل تم صد غارة قام بها البولوفتسي من قبل زعيم روسي كان يعمل مع «إيفان الخزري»[2].

وهكذا لقد ذكر الخزر وبلاد الخزر بعد كارثة سنة 965م التي أصيبوا بها، ووجد بارثولد، الذي قام بتمحيص الروايات، أن النص الروسي «يشير إلى الخزر كرعايا الروس»، وأضاف أن الإخضاع يمكن أن يقال قد شمل قطعة من شبه جزيرة القرم، وشبه الجزيرة المقابلة لها[3]، ويشبه هذا الرأي من حيث المرتكزات رأي كلابروث Klaproth الذي افترض منذ زمن بعيد أن الخزر قد فقدوا القرم في السني الأولى من القرن الحادي عشر، ومن ثم حصروا في منطقة قزوين وأسفل الفولغا[4]، وبناء عليه هل علينا أن نتصور أنه حيث لم يوجد ذكر للتحكم الروسي خاصة في المقاطعات المركزية لدولة الخزر القديمة، أن الخزر قد احتفظوا هناك باستقلالهم؟ الحقيقة هي أننا لم نسمع شيئاً مؤكداً عنهم فيما بين الفولغا والقوقاز، بعد الحملة الروسية لعام 965م اللهم فيما عدا أن الناجين قد عادوا[5]، ومن الواضح أنه لمغامرة أن نفترض بما أنه ليس هنالك ما يوحي أن أسفل الفولغا كان في أيدي الروس، فالدولة الخزرية لم تختف بل استمرت وهي ضعيفة حقاً صغيرة الحجم، سقسين عاصمة لها حتى احتلت أخيراً من قبل المغول، إن جميع الروايات في هذا المجال ـ لا نقول مضطربة ـ بل منعدمة.

---

(1) المؤرخ، الفصلان: 70 ـ 71.

(2) المؤرخ الروسي، نقلاً عن ن. ك تشادوك، بداية ورقة 128 من المخطوطة ومن المؤكد أن تشادوك على صواب في تبيانه أن المجموع هام. انظر ما يلي الحاشية 151.

(3) بارثولد، المصدر السالف.

(4) المجلة الآسيوية: 1/ 3 (823) 155.

(5) الرحالة اليهودي إبراهيم بن يعقوب الذي تحدث عن الخزر وكأنهم مازالوا مزدهرين في أيامه (ربما 973) كما رأى كونك البكري، تحقيق كونك وروسن: 74، نقلاً عن وستبيرغ، إبراهيم بن يعقوب: 79).

وفي المقابل إن استمرار وجود الخزر حتى أواخر القرن الثاني عشر مؤكد من قبل روايات عدة مصادر من الممكن ذكر مجموعتين رئيستين منها: وتتألف المجموعة الأولى من وثيقتين عبريتين من جنيزا القاهرة، وهما ذواتا أهمية متميزة بالنسبة لتطور اليهودية في بلاد الخزر في الحقبة المتقدمة على عام 965[1]، عندما كانت دولة الخزر مزدهرة سياسياً، وكما قلنا عدد الوثائق اثنتين، الأكثر أهمية منهما قد نشرها مان[2]، وهي تتضمن النص التالي: «في أيام الحاكم الذي كان اسمه الأفضل، قام المظلومون من شعب بني إسرائيل في سبيل تأسيس نبوءة، وتلعثموا بكلماتهم، ففي الجبال الموجودة في بلاد الخزر قام يهودي كان اسمه سليمان بن دوغي، وكان اسم ابنه مناحيم وكان معهما رجل فصيح اسمه إفرايم بن عزريا وهو من القدس يعرف بابن سهلن[3] (سهلون؟)، قاموا فكتبوا رسائل إلى جميع اليهود القريب منهم والبعيد، في جميع البلاد التي حولهم... وقالوا جميعاً أن الوقت الذي سيجمع الله فيه شعبه من بني إسرائيل من جميع الأراضي في القدس المدينة المقدسة، قد حان، وإن سليمان بن دوغي هو إيلياء وابنه هو المسيح»، ولاحظ بولياك[4] أن مان قد قال إن مناحيم بن سليمان بن دوغي هو مناحيم بن سليمان الروحي أو داود الروئي، المسيح المزيف، وهو بطل إحدى روايات دزرائيلي، وقد قيل بأنه ولد في العمادية في كردستان، وهلك في ثورة هناك في حوالي سنة 1160م، وأوضح مان أن اسم داود هو اسم واحد ادعى أنه ملك بني إسرائيل، ولفظة الروئي أو الروحي هي تصحيف لكلمة الدوغي، وقالت وثيقة الجنيرا إن بداية هذه الحركة الدينية التنبؤية [القائمة على فكرة المسيح المنتظر] كانت في دولة الخزر، ويعتقد بولياك أن داود الروئي كان بلا شك يهودياً خزرياً، قدم مع مؤيديه إلى العمادية في طريقهم نحو القدس، والتأريخ الوحيد المتوفر لهذه الوثيقة هو ما ذكرته عن الحاكم المسلم الأفضل، الذي بدأت الحركة الدينية التنبئية في أيامه،

---

(1) كذلك وستبيرغ: 288 ـ 292.

(2) مجلة الدراسات اليهودية: 71 (1920): 89 ـ 93، إنني لم أر مقال مان في هاتقفاه: م24 نقلاً عن بولياك، خزاريا: 339.

(3) اقتراح بولياك، انظر الحاشية التالية.

(4) خزاريا: 232 وانظر: 15.

وعدّ مان الأفضل الوزير الفاطمي المشهور الذي حكم مصر فيما بين 1094 و1121، هذا وبسبب هذا التأريخ المبكر نسبياً بعض المصاعب، لكن لا شك أن اقتراحات بولياك تميل نحو توضيح الغموض الذي يكتنف المشاكل في المادية قبل موت داود الروئي وذلك بتوفير بعض الضوء عن أصلها الممكن وأهميتها.

وتشير وثيقة الجنيزا الثانية أيضاً إلى قيام حركة دينية تنبئية في بلاد الخزر كما يبدو في عام 1096م، ونشر نصها أولاً من قبل نيبور، وهو غامض إلى درجة لا يسمح بالوصول إلى نتائج مؤكدة، وهو يتضمن ما يلي: «وأصاب الهلع جماعات المصلين كلها، فعادت إلى المولى وشرعت بالصوم وتقديم الصدقات، وهكذا انطلق من بلاد الخزر كما قيل سبع عشرة جماعة إلى برية الشعوب، ولا نعرف إذا كانت هذه الجماعات قد التقت بأي من الأسباط أم لا»[1]، وواضح أن المسيرة نحو القدس مرئية هنا أيضاً، ولاحظ بولياك أن عبارة «برية الشعوب» هي عبارة توراتية[2]، تبين المكان الذي سيقوم الرب فيه بصنع ميثاق جديد مع شعبه، قبل أن يعيدهم إلى أرض إسرائيل، وبما أنه تبعاً لما جاء في الوثيقة الثانية هذه قام مؤيدو الحركة بنقل أخبارها إلى بيزنطة، فإن العلاقات بين الخزر ويهود بيزنطة كانت موجودة، زد على هذا لقد كان هنالك نطاق من التأثير أوسع، شمل بشكل مباشر يهود وسط أوربا، وفي هذا التأثير إشارة إلى يهود الخزر، إذا صحت نظرية في أن اتخاذ «مجن داود» شعاراً جديداً شعبياً لدى اليهود هناك قد حصل نتيجة للحركة التنبئية الدينية في بلاد الخزر.

ولاشك أن بولياك محق في لفت الانتباه إلى الأدلة حول الحركة الدينية التنبئية في بلاد الخزر في أواخر القرنين الحادي عشر، والثاني عشر[3]، وعندما نحاول تقديرها (مفترضين أنها كانت على مستوى كبير) علينا أن نفكر في أن مشاكل جديدة قد حلت بديار الخزر، وهذا واضح في القرن الحادي عشر بظهور قبائل القبجاق (البولوفتسي) المتوحشة[4].

---

(1) الربعية اليهودية: 9 (1896 ـ 1897) 27.

(2) إزك: 20، 35، انظر خزاريا: 232.

(3) خزاريا: 233 ـ 234.

(4) ما بناه لاندو على هذا العنوان موجود في نقد لبحث بولياك «خزاريا» (فيرياث سفر: 21 (1944) 19، وجاء هذا النقد حاداً).

وجاءت في المقام الثاني الأدلة المبرهنة على استمرار وجود الخزر في شعر كتب بالفارسية في القرن الثاني عشر، فلقد سلفت الإشارة إلى ملحمة نظامي (حوالي 1141 ـ 1203) حول الإسكندر الكبير، حيث أتى ـ بشكل غير متوقع ـ على ذكر: الروس، والخزر[1]، وذكر الخاقاني (حوالي 1106 ـ 1190) وهو معاصر له أسن منه، الروس والخزر في مديحه لأخستان الذي كان شروان شاه في القرن الثاني عشر، حيث أوقع الهزيمة بهم[2]، وكان الشاعران على اطلاع على الأوضاع المحلية في منطقة القوقاز، ذلك أنهما أمضيا شطراً كبيراً من حياتيهما في خدمة حكام كنجة (اليزافتبول) قرب باكو، ووجد خانكوف الذي درس شعر الخاقاني أن الروس قد شاركوا في غزوة ضد شروان شاه، كحلفاء للخزر، ولم يستطع أن يؤرخ لهذه الغزوة بشكل محدد، وقدر أنها تمت فيما بين[3] 1135 و1193م، وعدّ بارثولد تاريخ الحادثة سنة 1175م، وخيل إليه أن الغُزّ أو القبجاق هم من عني هنا[4]، لكن يلاحظ أن الخاقاني قد ذكر القبجاق بشكل واضح في مكان آخر من شعره[5]، وليس هنالك من شك أن النظامي الذي تعدّ ملحمته عن الإسكندر (سكندرنامه) بشكل عام، آخر أعماله، قد أكملت بعد وفاته بأمد وجيز في حوالي سنة 1203، ويفترض أنه عندما كتبها كان يفكر بأوضاع مشابهة لأوضاع الروس، والخزر، وهو لذلك يعد شاهداً معاصراً آخر يثبت وجود الخزر، وانتشار اسمهم في تلك الآونة، وربما يمكننا من خلال مواد الخاقاني أن نتصور الغزاة ضد شروان، وهم يزحفون براً من خلال ممرات القوقاز[6]، وذلك مع أسطول روسي ـ ورد ذكر اثنتين وسبعين

---

(1) بالنسبة للتاريخ انظر مينورسكي، حدود العالم: 316 (1054م).

(2) انظر. ف. مينورسكي «خاقاني وأندرونيكوس كومينوس» دورية معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية 1945، 11/ 3/ 550 ـ 578.

(3) رسالة م. خاتكوف 8/ 20 أيار 1857 في «المجلة الآسيوية» 3/ 120 ـ 121.

(4) الموسوعة الإسلامية، مادة دربند، انظر المصدر نفسه، مادة خزر.

(5) خانكوف، المصدر نفسه: 117، 121.

(6) أو من دربند، انظر مينورسكي «خاقاني و...» 557، حيث اعتمد اقتراح باخوموف في أن الغارة على شروان من قبل الروس والخزر جاءت بمبادرة من بكير بن مظفر أمير دربند المستقل.

سفينة[1] ـ مؤيد لهم، ومن المهم في هذا المجال أنه أتى في أحد النصوص على ذكر اسم اللان مع الخزر[2]، هذا وإن قيام الحكام المسلمين المحليين في جنوبي القوقاز بتولي شؤون صد الغزاة من الشمال في الحقب المتأخرة قد بات أمراً عادياً، وذلك بعدما كان هذا من مسؤوليات ولاة الخلافة من قبل، وجرى إيضاح الوضع من خلال الحديث عن وفاة شروان شاه سالف اسمه علي بن الهيثم، ومن خلال الحادث الذي سبب اشتراك فضلون الكردي[3]، ثم من خلال حملة قام بها شروان شاه الذي تولى مدحه الخاقاني، ومن المثير أنه ورد ذكر اسم الخزر في جميع هذه الأحداث التي وقعت بعد سنة 965م.

وتبقى الحقيقة الكبرى بالنسبة لتاريخ منطقة الفولغا ـ القوقاز في الحقبة التي سبقت الاحتلال المغولي هي ظهور القبجاق أو الكومان (يعتقد أنهم البولوفتسي الذين ورد ذكرهم في التاريخ الروسي) وهي الحقيقة الوحيدة التي يمكن الحديث عنها بشكل مؤكد، وهناك خلاف في الرأي حول الموضع الذي تمركزوا فيه[4]، لكن المهم أن سيادتهم على السهوب أصبحت كاملة[5]، فهم ـ وليس الخزر ـ كانوا العدو الرئيسي الذي توجب على المغول الصراع معه في تلك المنطقة، فهذا ما تظهره حكايات سنجار الخوارزمي[6] والبشمان[7]، لكن ما الذي كان قد حدث قبل

---

(1) خانكوف، المصدر نفسه: 125.

(2) المصدر نفسه: 127، وإشارة أخرى (المصدر نفسه: 132): هرب الروس والخزر حيث نزلت بهم الفوضى في بحر الخزر وكان ذلك لصالح العصابات المنتصرة. انظر مينورسكي. دورية معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية (1930) 905، وبالنتيجة (المصدر نفسه: 133) فرض باكو أثناء وجوده الجزية على: الخزر، والري، وزيرهغران، ومن المحتمل أن الاسم الأخير هو زيرغران (مينورسكي، حدود العالم: 450 في القوقاز الشرقية).

(3) بالنسبة إليهما انظر ما سلف.

(4) تبعاً لمرقوارت (الأتراك الغربيون: 102، نقلاً عن بارثولد ـ الموسوعة الإسلامية، مادة قبجاق) في القرن الثاني عشر.

(5) تماشياً مع هذا نجد في مصادر الحقبة المغولية «دشت قبجاق» أي «صحراء القبجاق» وقد ظهرت مراراً معادلة لعبارة «دشت خزر» أي «صحراء الخزر» التي كانت ترد في المصادر القديمة.

(6) تاريخ جلال الدين، تحقيق هوداس، النص: 48، الترجمة: 81.

(7) رشيد الدين، تحقيق بلوشت: 44 ـ 45. انظر الجويني: 2/ 9 ـ 11.
توجد الآن ترجمة إنكليزية في بحث مينورسكي «قوقازيا 3»، دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية (1952) 14/ 2/ 225.

وصولهم[1]؟ إن هنالك غموضاً عاماً يحيط بتاريخ الخزر، فتلك كانت مظلمة وستبقى كذلك ولا يمكن توضيحها الآن، كما أنه من الصعب جداً التفكير بوجود دولة خزرية، أو إذا وجدت فإنها لم تعش بعد ذلك طويلاً.

ولقد كان كوتشيرا Kutschera[2] أول من افترض وجود علاقة بين ظهور السلاجقة، واضمحلال شأن دولة الخزر، وقد برهنت هذه الفرضية على احتمالات كبيرة للصحة، كما يمكن تمتينها أكثر، فقد لفت زكي وليدي[3] الانتباه إلى نص موجود في كتاب «تفضيل الأتراك» لأبي العلاء بن حسول، فقد ورد في هذا النص أن سلجوق (أو سرجوق) جد السلاجقة الأتراك قد تحدى ملك الخزر شخصياً وأهانه[4]، ويرى زكي وليدي أن هذه الإشارة تفسح المجال بشكل واضح إلى احتمال قيام حرب في يوم من الأيام بين الخزر، والغُزّ، الذين انتسب السلاجقة إليهم، وكان ابن حسول موظفاً لدى الغزنويين في الري وقت قيام دولة السلاجقة[5]، وجرى تقديم كتابه إلى طغرلبك من قبل الوزير عميد الملك[6]، ربما ليس بعد سنة 437هـ/ 1045م، ولهذا من غير المحتمل أن يكون المصنف قد تصرف ببعض الحقائق المقبولة حول تاريخ الأسرة الحاكمة الجديدة، وجاء في هذا النص كما نقله زكي وليدي: إنه بالنسبة لنسب السلطان [طغرلبك] نصره الله، يكفي للبرهنة على أصالته أنه لا ينتهي مثل الآخرين إلى عبد غير معروف، فلقد كان من بين أجداده سرجوق (سلجوق) الذي ضرب ملك الخزر بسيفه، ورماه بدبوسه، الذي كان بيده، حتى أنهك حصانه، ورماه على الأرض منكباً على وجهه، وهذا ليس من فعل العبيد بل من

---

(1) بالنسبة لما جاء عند القزويني (انظر الحاشية 68) في أن سقسين قد انتقلت في وقت من الأوقات إلى أيدي الغز، لكن لا شك أن القبجاق غدوا مسيطرين عليها ضمن سيطرتهم على غيرها.

(2) الخزر: 104.

(3) ابن فضلان: 17، الحاشية.

(4) حقق النص العربي من قبل عباس العزاوي، وقد ترجم مع المقدمة من العربية من قبل الأستاذ س. يلتكايا في بولتان رم 14 ـ 15 (استانبول 1940).

(5) تفضيل: 10.

(6) المصدر نفسه: 45.

فعل أحرار الروح والنفس التي هي فوق الثريا، فمن سلجوق بدأت دولتهم وصحت دعوتهم[1].

والغمز هنا كان من قناة الغزنويين الذين انحدروا من صلب سبكتكين، الذي كان عبداً، لكن من المقدر أن يكون ابن حسول قد عزا إلى سلجوق عملاً كان قد قام به أبوه، فنحن نقرأ لدى ابن الأثير قصة مشابهة كان[2] المتورط فيها تُقاق أبو سلجوق «وملك الترك الذي يدعى يبغو»، ولم يكن هذا الأخير خاقان الخزر بل يبغو الغُزّ، وهو لقب ورد عند ابن فضلان[3]، وينقل ابن العبري عن كتاب[4] «ملك نامه» ما يفيد أن تُقاق كان واحداً من قادة خاقان الخزر، وعندما توفي أخذ ابنه الصغير سلجوق وربي في بلاط الخاقان، وفيما بعد غضبت الخاتون من سلوكه تجاه الخاقان مما استدعى مغادرته[5]، ومرة أخرى هنالك إشارة لدى ابن العديم في كتابه تاريخ حلب جاء فيها أن الأمير سلجوق بن تقاق قد كان واحداً من مقدمي الخزر الأتراك[6]، وبناء عليه لعل السبب غير المعروف لدى بارثولد[7] لهجرة الغزّ بقيادة السلاجقة أولاً نحو المجرى الأدنى لنهر سيحون (سرداريا، ثم إلى منطقة بخارى، قد كان انفصال سلجوق نهائياً عن الخزر)[8].

---

(1) المصدر نفسه: 49 ـ 50.

(2) 9/ 162 حوادث سنة 432.

(3) فصل 33.

(4) سمي من قبله «ملك نامه» التسمية التي تبنيتها (زكي وليدي، ابن فضلان، جوانب من المشكلة الخزرية، الجمعية الآسيوية لجامعة غلاسكو 13 (1951) 42) وقارن كلود كاهن (ملك نامة، تاريخ عن أصل السلاجقة الشرق: 2/ 32 ـ 33 ـ الحواشي ـ 1949). أن يصبح سلطاناً إثر وفاة طغرلبك سنة 455هـ/ 1063م.

(5) المؤرخ السرياني، تحقيق بدج، النص ورقة 69، العمود 1، الترجمة: 195.

(6) زكي وليدي، ابن فضلان: 143، انظر أيضاً الفخري، تحقيق دبرنبورغ: 392.

(7) تركستان (سلسلة ذكرى جب): 256.

(8) في المقال الذي ورد ذكره في الحاشية 137. وقد استنتجت أن ملك الخزر قد أخذ رهائن من الغز (انظر ابن فضلان: 143) من الواضح أنه من غير الممكن القول أن السلاجقة في أيام ابن فضلان كانوا واحداً من هؤلاء.

ولقد حمل أبناء سلجوق الأسماء التالية: ميكائيل، ويونس، وموسى، وإسرائيل، وحمل أخو طغرلبك في الجيل التالي اسم داود، ولقد اعتقد بعضهم أن الأسماء التوراتيه التي حملها بعض أوائل السلاجقة توحي بأن الأسرة كانت بالأصل مسيحية[1]، ويبدو أن حقيقة الحال لم تكن كذلك، ففيما يتعلق بالأسماء إن اسمي ميكائيل وإسرائيل، أو ما يوازيهما هي أسماء يهودية كانت شائعة الاستخدام لدى اليهود في العصور الوسطى[2]، وعندما نشهد مثل هذه الأسماء بين المسلمين فإنها تشير إلى أصل أجنبي[3]، أضف إلى هذا أن اسم إسرائيل ليس اسماً مسيحياً، وفي ضوء ما قيل حتى الآن يمكننا أن نفترض أن مرد هذه الأسماء هو وجود تأثير ديني محدد بين أسر الزعامة الغزية التي كانت تابعة للخزر، هذا ومن الممكن أن «بيت العبادة» الذي تحدث القزويني[4] عن وجوده بين الغُزّ قد كان كنيساً يهودياً.

هذا وفي الوقت الذي وجدنا فيه بعض الأسس للربط بين السلاجقة والخزر في القرن العاشر، لاشك أنه لخطأ جسيم أن نفترض أن السلاجقة قد أنجزوا ما عجز الروس عن إنجازه عام 965م وأنهم هم الذين تولوا حقاً قهر دولة الخزر، ذلك أن الاندفاع السلجوقي الرئيسي كان أولاً في الشرق في بلاد ما وراء النهر، ثم في خراسان، وفيما بعد فقط أخذ اتجاهاً غربياً، فلو كان قد حدث وحقق السلاجقة الانتصارات العظيمة على الخزر، لتوجب أن يأخذ تطور السلطة السلجوقية منحاً آخر، وذلك في غربي بحر قزوين، ولاشك أن عدم تحرك السلاجقة في هذا الاتجاه هو وجود قوة على الفولغا تمتلك من القدرة ما يكفي لمنعهم، ومن المؤكد أننا نواجه هنا دليلاً آخر على أن دولة الخزر كانت موجودة في أواخر القرن العاشر، وبناء عليه يمكننا من جديد أن نؤكد أن دولة الخزر قد استمرت بالوجود بعد

---

(1) انظر الموسوعة الإسلامية، مادة سلاجقة.

(2) زونز، الأسماء اليهودية: Gesammelte scheiften، برلين 1875.

(3) كاهن (المصدر السالف: 42) حيث تناول هذه الأسماء السلجوقية وذكر (57) اسم زعيم تركماني دعي الحاج إسرائيل، ولربما يمكن ربط هذا الاسم باسم إسرائيل بن سلجوق أو بأصل مماثل.

(4) تحقيق وستنفيلد: 2/ 395.

الحملة الروسية، لكننا ما نـزال في الظلام بالنسبة لمجرى الأحداث الذي جلب سقوطهم النهائي، وكما سلف بنا القول يبدو أنـه كان حاصلاً بشكل كامل قبل الحملات المغولية للقرن الثالث عشر.

وبقي علينا الآن أن نولـي أهمية خاصة النظرية القائلة إن يهود أوربا الشرقية، وعلى الأخص يهود بولندا، هم منحدرون من خزر العصور الوسطى[1]، ومن الممكن التعامل مع هذا الموضوع بشكل موجز فقط لأن هنالك أدلة قليلة تتعلق به مباشرة، وهي بلا موارية تحمل سمات الافتراض البحت، ولاشك أن وجود أغلبية من ذوي البشرة الشقراء والشعر الأشقر والعيون الملونة بين يهود أوربا الشرقية ينبغي أخذه بعين التقدير وإيجاد تفسير له، والقول إن مرد ذلك إلى تزاوج واسع النطاق مع عناصر غير يهودية من السكان لا يمكن قبوله ومشكوك فيه، وقد قيل إن مرد ذلك تجنيد أعداد كبيرة من يهود الشرق الأقصى وأن هؤلاء هم أصل يهود شرقي أوربا، لكن ليس هنالك ما يؤكد ذلك[2]، وأما من الجانب اللغوي فقد برهنت الأبحاث على انعدام المؤثرات الغربية على «اليدش»[3] مع أنه قليل بالمقابل بوجود ما يشير إلى مؤثرات لهجات جرمانية من الشرق والجنوب الشرقي[4] ونجد من الجانب التاريخي أنه بالإضافة إلى الخزر الذين ذهبوا إلى هنغاريا [حيث قيل إن «المجر» ـ كانوا لبعض الوقت مزدوجي اللغة يتكلمون اللغة الخزرية ولغتهم الخاصة[5]] من المؤكد وقوع أعمال انتقال هامة للسكان وتحويل من أراضي الخزر

---

(1) كوتشيرا، الخزر: 13 ـ 17 نقلاً عن اللغوي ك. فوغت، وقد أثارت هذه القضية اهتمام بولياك بشدة وعمق، انظر كتابه «خزاريا» المقدمة وخاصته: 255 ـ 270، وقد أشير من قبل إلى رأي زاجا تشكوسكي حول «قرائي» بولندا والقرم على أساس عدّهم ممثلين للخزر القدماء.

(2) و. أ. د. ألن «تاريخ شعب جورجيا» (لندن 1932): 323 نقلاً عن ريبلي «أجناس أوروبا».

(3) ميسس «تاريخ نحو اليدش» (1924) نقلاً عن الأستاذ هـ. سمث «أعمال الجمعية الشرقية لجامعة غلاسكو»: 5/ 67.

(4) هـ. سمث، المصدر نفسه.

(5) انظر الفصل السابع.

السالفة[1]، خاصة أيام الحملات المغولية[2]، وحين نتفحص النظرية القائلة بالأصل الخزري في محاولة البرهنة على صحتها ينبغي أن نأخذ بعين التقدير الأوصاف التي وصلتنا في أكثر من مصدر، والتي تثبت أن الخزر أنفسهم كانوا شقراً[3]، وسواء أصحت هذه الروايات أم لا، فلا شك أن امبراطورية الخزر قد حوت أناساً من مختلف الأعراق والأشكال والأجسام، وأنه بين هؤلاء شقت - بدون شك - ديانة الحكام طريقها وانتشرت، هذا وإن القول إن يهود شرقي أوربا منحدرون من الخزر يقود إلى إدخال «الاشكناز» جميعاً وشمولهم بشكل عام[4]، ويعني ذلك أيضاً شمول الغالبية العظمى من يهود عالم اليوم، وهذا أمر كبير فوق طاقة ما تبيحه مصادرنا الناقصة من معلومات.

(1) قيل إن الدوق الهنغاري تاكسوني قد وجه الدعوة إلى الخزر للاستقرار في مملكته (فازلييف، القوط: 100) وقدم بعض الخزر إلى مملكة فلادمير للعثور على المأوى فراراً من الكومان (القبجاق، البولوفتسي) وبنوا بلدة سموها بيلا - فيزها على مقربة من شيرنكوف (كوتشيرا - شاسرن: 175). (وإذا صح هذا فإن هؤلاء الخزر قد عاشوا في بيلا فيزها (ساركيل) وقد استقر الآن (1117) في شيرنكوف، وهذا ما جاء في الموسوعة اليهودية، مادة خزر) وقبل هذا من المحتمل أن بعض الخزر جاءوا إلى كييف (انظر: ن. ل. تشادوك، البدايات: 129).

(2) مع اقتراب باتو المغولي اقترح الكومان على بيلا ملك هنغاريا أنه ينبغي السماح لهم بدخول بلاده على شرط أن يصبحوا نصارى، وقد سمح لهم بذلك، وقيل كان تعدادهم 000. 40 مع عبيدهم، وإذا انضم هؤلاء القوم فيما بعد إلى المغول ضد المجر (رافوتي، طبقات ناصري: 1167، الحاشية) يبقى الاحتمال الأكبر هو أن يهود شرقي أوربا قد ازداد عددهم في هذه الآونة بشكل كبير بالتحاق أبناء دينهم بهم.

(3) انظر الفصل الأول.

(4) ن. شلوتز (مجلة هـ. ديرنبورغ: 75) حيث يعتقد بوجود طائفة سبتيه انحدرت من هؤلاء الخزر.

المصادر والروامیز

- أبو الفداء، الجغرافية[1] تحقيق رينو ودي سلان، باريس 1840.
- أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب، تحقيق فيراند، المجلة الآسيوية، مجلد 207 (1925).
- Arme-la suede et l'ovient, archives d'etudesoriemtales upsala 1914.
- Assemani, Bibliotheca orientalis, Rome 1719 - 1728.
- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن 1866.
- البلعمي، تاريخه، تحقيق دورن، الأكاديمية الروسية 1844.
- ابن العبري، التاريخ السرياني، تحقيق وترجمة السير إ. أ. وللس بدج. اكسفورد 1932.
- بارثولد، اكتشاف آسيا، ترجمة فرنسية من قبل ب. نكتين (باريس 1947).
- بومستارك، تاريخ الأدب السرياني، بون 1922.
- برتشنيدر، أبحاث وسيطة من مصادر شرقي آسيا، 1910.
- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ويمار 1898 ـ 1902. ليدن 1937.
- براون، تاريخ الآداب الفارسية، لندن وكمبردج 1902 ـ 1930.
- بري، تاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخرة، لندن 1889، 1923.
- بري، تاريخ الامبراطورية الرومانية المبكرة، لندن 1912.
- جيبون، انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية، تحقيق ج. ب بري.
- بوكستورف، كوسري، تحقيق بوكستورف، بازل 1660.
- كارمولي، الخزر في رحلات القديسين، برسل 1847.
- Carra de vaux-le livre de l'avertissement et de la revision, paris 1896.
- شابوت، تاريخ ميخائيل الكبير، تحقيق وترجمة ج. ب شابوت، باريس 1899.
- شادوك، البدايات، مخطوطة. ن. ك. شادوك، بدايات التاريخ الروسي، كمبردج 1946.
- شافانس، الوثائق، أ، شافانس. وثائق تاو، كيف الغربية. سانت بطرسبورغ 1903.
- المؤرخ، المؤرخ الروسي، ترجمة ليغر، نشر مدرسة اللغات الشرقية السلسلة الثانية: 13 (1884).
- قسطنطين بورفي، قسطنطين بورفي روجنتوس.
- دربندنامه، تحقيق قاسم بك، في ذكرى الأكاديمية الروسية، 1851.

(1) احتفظت بعناوين الكتب كما أوردها المؤلف وكذلك بترتيب المصادر.

- اكتشاف، انظر بارثولد.
- دورن، دورن بلعمي، في ذكرى الأكاديمية الروسية، 1844.
- Dubnov, Geschichte-weltgeschichte des judischen volkes Berlin. N. d.
- الموسوعة الإسلامية.
- الموسوعة اليهودية.
- فيراند، انظر أبو حامد الأندلسي.
- قطعة ـ وستبيرغ ـ قطعة قوط توبارخا ـ في ذكرى الأكاديمية الروسية 1902.
- فرهن ـ الخزر، في ذكرى الأكاديمية الروسية 1822.
- كرديزي، تحقيق بارثولد، في ذكرى الأكاديمية الروسية 1897.
- جب، الفتح العربي، هـ. أر. جب. الفتح العربي في آسيا الوسطى. الجمعية الملكية الآسيوية 1923.
- غريغوري، هـ، غريغوري، تسمية وأصل الهنغار (1937) Z. D. M. Q. N 91.
- غراتز، تاريخ اليهودية، الطبعة الثالثة.
- Harkavy, Denkmaler - Altjudische denkmaler aux krim.
في ذكرى الأكاديمية الروسية 1876.
- تاريخ غلوسن، انظر مرقوارت، تاريخ غلوسن.
- حدود، انظر مينورسكي، حدود.
- ابن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، مخطوطة طوب قبي، سراي 2956، نقلاً عن زكي وليدي، ابن فضلان.
- ابن الأثير، ط. القاهرة 1303هـ.
- ابن فضلان، رحلة. تحقيق زكي وليدي.
- ابن الفقيه، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية.
- ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، 1856 ـ 1873.
- ابن حوقل، ط. أولى تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية. ط. ثانية، كريمر 1939.
- ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ترجمة. إ. ج بروان، سلسلة ذكرى جب.
- ابن خلدون، ط. بولاق 1284هـ.
- ابن خرداذبة، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية: 4.
- ابن قتيبة، معارف، كتاب المعارف، وستنفيلد، كوتنجن 1850.
- ابن رسته، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية: 7.
- ابن سعد، طبقات. تحقيق إ. سخاو، ليدن 1904 ـ 1917.
- الاصطخري، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية: 1.
- المجلة الآسيوية.
- مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية.
- الموسوعة اليهودية.

- الدورية الربعية اليهودية .
- مجلة الجمعية الملكية الآسيوية .
- الجويني ، تاريخ قاهر العالم ، تحقيق ميرزا محمد ، في سلسلة ذكرى جب .
- ك ، مجموعة الأستاذ كاهلفي مخطوطات تشستربيتي من الاصطخري .
- قاسم بك (بي) دربندنامه (تحقيق) في ذكرى الأكاديمية الروسية 1851 .
- كموسكو ، «العرب» ، العرب والخزر 1924 ـ 1925 .
- Kokovtsow, Evreisko-Khazarskaya perepiska Vx veke Leningrad 1932.
- كوتشيرا ، الخزر ، فينا (ط ـ 2) 1910 .
- Landu. Beitrage, Beitrage zum chazarenproblem, Breslau 1938.
- لاندو ، الوضع الحالي ، الوضع الحالي لمسألة الخزر ، بالعبرية ، 1942 .
- مان ، نصوص ودراسات ، نصوص ودراسات في تاريخ اليهود وآدابهم ، المجلد الأول سنسناتي 1931 ، المجلد الثاني ، فيلادلفيا 1935 .
- Marquart, Eranchahr-Eransahr nach der Geographie des ps. Moses x orenac'i, Abhanldungen derkonig lichen Gesellsch. Aft der wissens chaften zugottingen, neue floge, III 2 Berlin 1901.
- Marquart, Historische glossen - «Historische glossen zu den alttur kischen inschriften» Vienna oriental. Journal (wiener zeitschrift fur die kunde des morgenlandes) xll, 1898.
- Marquart, streifzuge
  streif z
  Str
  } osteuropaische und ostasiatische streifzuge. Leipzig 1903.
- المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق بربير دي مينارد وبافت دي كورتيل ، باريس 1861 ـ 1878 .
- المسعودي ، التنبيه ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : 7 .
- مينورسكي ، حدود ، حدود العالم ، سلسلة ذكرى جب .
- مينورسكي ، مروزي ، شرف الزمان طاهر مروزي ، حول الصين والترك والهند ، الجمعية الملكية الآسيوية 1942 .
- مينورسكي ، تميم ، رحلة تميم بن بحر إلى الايغور ، دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ، 1948 ، 12/ 2/ 275 ، 305 .
- Mon. Germ. Ser - Monumenta Germaniae Hestorica scriptorees.
- مقدسي ، تحقيق دي غويه . المكتبة الجغرافية العربية : 3 .
- نيبور ، أين القبائل العشر؟ الدورية الربعية اليهودية 1 (1889) . نقفوروس ط . بون .
- Noldeke, Beitrage zur Geschichte des Alexander Romans, Denkschriften der wien. Akad, xxx v111, 5.
- بلليوت . أسماء الأتراك ، بول بلليوت ، لهجات أسماء الأتراك . باريس 1950 .
- Platonov, Russie shretienne-SF. Platonov, La Russie chretienne in Avaignac, Histoire du monde. T. VLL (Paris 1931).
- بولياك «تحول» ، تحول الخزر إلى اليهودية ، 1941 ، بالعبرية .
- بولياك خزاريا ، خزاريا ، تل أبيب 1944 ، بالعبرية .
- القاموس المحيط للفيروز أبادي أربع ملجدات ، القاهرة 1353/ 1935 .

- قزويني، الجغرافية، مجلدان، تحقيق وستنفيلد، كوتنجن 1848.
- قدامه، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية: 6.
- رشيد الدين، تحقيق بلوشت، سلسلة ذكرى جب.
- دورية الدراسات اليهودية.
- Schultzc - Das Martyrium des heiligen abo von taflis. Texte und centersuchungenzur Geschicdte der altchristlichen Literatur, neve Folge x111 (1905).
- strashe - Firkovitih und seine Entdeckungen, Lepzig.
- الطبري، تحقيق دي غويه وآخرون، ليدن 1879 ـ 1901.
- تفضيل، كتاب تفضيل الأتراك، تحقيق العزاوي، إعادة إصدار من يلتكيا ـ بولتان رقم 14 ـ 15، استانبول 1940.
- صلة ثيوفانس، ط. بون.
- فازلييف، قوط، القوط في القرم، كمبردج 1936.
- فرنادسكي، روسيا القديم، ييل 1943.
- Mestberg, Beitrage - stadt und volk saksin, Beitrage zur Klarung orientalischer Quellen uber osteu ropa, Bulletin of the Russian Academy 1899.
- وستبيرغ، إبراهيم بن يحيى، رحلة إبراهيم بن يحيى 965. في ذكرى الأكاديمية الروسية 1898.
- W. Z. K. M. - Wiener zeitschrift fur die kunde des morgenlandes.
- اليعقوبي، التاريخ، تحقيق هوتسما، ليدن 1883.
- اليعقوبي، البلدان، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية العربية، 7.
- ياقوت، بلدان، معجم البلدان، تحقيق وستنفيلد، لايزبغ 1866 ـ 1870.
- زاجاتشكوسكي، الثقافة الخزرية وميراثها ـ برسلو 1946.
- زاجاتشكوسكي، مشكلة لغة الخزر، جمعية برسلو العلمية: 1946.
- زاجاتشكوسكي، دراسات حول مشكلة الخزر، الأكاديمية البولندية، كراسكو 1947.
- زمباور، معجم الأسر الحاكمة، هانوفر 1927.
- Z. D. M. G. Zeitshcrift der Deutschen morgenlandi schen Gesellschaft.
- زكي وليدي، ابن فضلان، رحلة ابن فضلان 1939.
- Zeki walidi, volkerschaften - «volkerschaften des chazaraenreiches im neunten jahrhundert», Korosi cosoma - Archivum.1940.
-Zeki walidi, «Die schuverter der Germanen» in Z. D. M. G, B. 90 (1936) 19 - 37.
- Zeuss, Die Deutschen - Die Deutschen und die Nachbars - tamme, Munich 1837.
- Zh. M. N. P. See Z. M. N. P.
- زخي، رحلة سلاّم الترجمان، الوثائق الخزرية العالمية 1921.
- Z. M. N. P. Zhurmal Ministertva Narodnogo prosveschenia.
- زوتنبيرغ، تاريخ الطبري، باريس 1867 ـ 1874.